# من انتفاضة الخبز إلى منبر الأزهر.. مصر في قلب تاريخ طويل للاحتجاج الشعبي

الأحد 27 سبتمبر 2026 11:30 م

لم تكن المظاهرات والاعتصامات والإضرابات وسائل احتجاج حديثة كما قد يبدو للوهلة الأولى، فكتب التاريخ الإسلامي تحمل نماذج متعددة لتحركات شعبية استخدمت فيها المجتمعات وسائل مختلفة للتعبير عن الغضب والمطالبة بالحقوق، من الشكاوى والعرائض إلى إغلاق الأسواق والمساجد، والإضراب عن العمل، والتجمع أمام مقار الحكم.

وتكشف وقائع عديدة عن حضور مصر بشكل واضح في هذا التاريخ، سواء من خلال احتجاجات المصريين على غلاء الأسعار ونقص الخبز، أو تحركات العامة في القاهرة والإسكندرية، أو مشاركة علماء الأزهر والتجار وأصحاب الحرف في الضغط على السلطات.

وتظهر هذه الوقائع أن الاحتجاج لم يكن نمطا واحدا، بل تراوح بين وسائل سلمية هادئة وأخرى أكثر حدة، تبعا لطبيعة الأزمة ورد فعل السلطة عليها.

## الخبز يشعل احتجاجات مصر

من أقدم النماذج اللافتة للاحتجاج في مصر ما وقع سنة 398هـ/1009م، عندما شهدت البلاد ارتفاعا شديدا في أسعار الحبوب ونقصا في الخبز، ما دفع الناس إلى التجمع والتعبير عن غضبهم.

ولم يكتف المحتجون بالشكوى الشفهية، وإنما لجأوا إلى وسيلة رمزية لافتة؛ إذ رفعوا إلى الحاكم عريضة شكوى وأرفقوا بها رغيفة من الخبز، في محاولة لإيصال صورة مباشرة عن سوء حال الغذاء وما وصل إليه الخبز من ندرة ورداءة.
وتورد المادة التاريخية أن المصريين اجتمعوا وضجوا من قلة الخبز وسواده.

ولم تكن هذه الواقعة استثناء، إذ تسجل المصادر التاريخية احتجاجات أخرى في مصر بسبب ارتفاع أسعار الحبوب.
ففي سنة 839هـ/1435م، أدى غلاء القمح ونقص الخبز في الحوانيت إلى تحرك العامة، قبل أن يأمر السلطان بفتح مخازن الحبوب وبيعها للناس، وهو ما ساهم في تهدئة الأزمة مؤقتا.

وتوضح هذه الوقائع أن الأزمات الاقتصادية كانت من أبرز دوافع الاحتجاج، خصوصا عندما ارتبطت بالخبز والغذاء والأسعار، وهي قضايا تمس الحياة اليومية بصورة مباشرة.

## من العريضة إلى إغلاق الأسواق

تعددت الوسائل التي استخدمها المحتجون، فلم يكن النزول إلى الشوارع هو الشكل الوحيد للاعتراض.
فقد لجأ الناس إلى تقديم العرائض، والتجمع في المساجد، ورفع المطالب إلى الحكام، إضافة إلى تعطيل الأسواق والمحال والإضراب عن العمل.

وتذكر المصادر أن إغلاق الأسواق تحول في بعض الفترات إلى وسيلة ضغط جماعية، خاصة عندما كانت الأزمة مرتبطة بالأسعار أو الأمن أو ممارسات المسؤولين.

وفي إحدى الوقائع أغلقت أسواق الموصل احتجاجا على عجز السلطة عن مواجهة الغزو البيزنطي، بينما توجه المحتجون إلى المسؤولين مطالبين باتخاذ إجراءات واضحة.
وانتقلت مظاهر الاحتجاج إلى بغداد، حيث أغلقت الأسواق أيضا ورفعت شكاوى إلى الخليفة.

كما ظهر الإضراب المهني بين أصحاب الحرف، إذ كان توقف فئة مهنية كاملة عن العمل قادرا على خلق ضغط اقتصادي واجتماعي يدفع السلطة أو المجتمع إلى التفاوض معها.
وتشير الروايات إلى أن بعض الحرفيين كانوا يتجمعون ويغادرون المدن احتجاجا على سوء معاملتهم، قبل أن تستجيب السلطات لمطالبهم.

وبذلك لم يكن الاحتجاج الجماهيري مرتبطا بفئة واحدة، وإنما شارك فيه عامة الناس وأصحاب المهن والتجار والعلماء، كل بحسب القضية التي تمسه.

## الأزهر يقود احتجاجات مصر

تحتل مصر موقعا بارزا في هذا المسار بسبب الدور الذي لعبه علماء الأزهر في عدد من التحركات الشعبية خلال العهدين المملوكي والعثماني.

وتشير المادة التاريخية إلى أن علماء الجامع الأزهر لم يكتفوا بإبداء المواقف، بل شاركوا في تحركات الرأي العام وتحالفوا في بعض الوقائع مع التجار والأعيان، وقادوا احتجاجات انتهت أحيانا إلى إغلاق الأسواق وتعطيل الدراسة في أروقة الأزهر حتى تستجيب السلطة للمطالب.

ومن الوقائع اللافتة ما حدث في الإسكندرية سنة 1199هـ/1785م، عندما اندلعت أزمة بين الأهالي وبعض عناصر القلعة والجيش بعد مقتل أحد سكان المدينة على يد أحد أتباع قائد عسكري.
وتطورت الأحداث إلى تحرك شعبي ضد المسؤول العسكري، حيث قبض عليه المحتجون وأهانوه وطافوا به في شوارع المدينة، في مشهد يعكس حجم التوتر بين السكان والقائمين على السلطة المحلية.

وفي واقعة أخرى سنة 1209هـ/1794م، لجأ سكان إحدى القرى التابعة لبلبيس إلى شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوي، بعدما اشتكوا من ظلم بعض المتنفذين وفرضهم مطالب تفوق قدرتهم.
وانتقل الشيخ إلى الأزهر، وجمع المشايخ، وأغلقت أبواب الجامع، ودُعي الناس إلى إغلاق الأسواق والحوانيت، قبل أن يتوجه المحتجون إلى المسؤولين للمطالبة بالعدل ورفع الظلم.

وتبرز هذه الوقائع طبيعة خاصة للاحتجاج المصري في تلك المرحلة، حيث تداخلت مكانة الأزهر الدينية مع القوة الاجتماعية للتجار والأعيان والعامة.

## احتجاجات تتجاوز السياسة

لم تكن دوافع الاحتجاج اقتصادية فقط، بل شملت قضايا سياسية وأمنية ودينية واجتماعية.

ففي بعض الحالات اعترض الناس على تعيين مسؤولين اعتبروهم غير مناسبين، أو طالبوا بعزل ولاة ومسؤولين بسبب سوء الإدارة أو الظلم.
وتظهر روايات تاريخية أن شكاوى العامة كانت تؤدي أحيانا إلى عزل مسؤولين أو تغييرهم، ما يعكس وجود تأثير للرأي العام في بعض ترتيبات الحكم.

وفي مصر أيضا سجلت المصادر تحركات شعبية ضد الاعتداء على السكان وممتلكاتهم.
ومن الأمثلة أن جماهير القاهرة لجأت إلى الأزهر بعد تعرض بعض البيوت للنهب على يد جنود وأمراء، وطلبت مساعدة الشيخ أحمد الدردير، الذي ساند مطالبهم وسعى إلى الضغط على المسؤولين لإعادة الحقوق.

كما ظهرت الاحتجاجات ذات الطابع الاجتماعي عندما شعر السكان بأن سياسات السلطة تهدد نمط حياتهم أو تنتهك خصوصياتهم.
وفي عصور مختلفة لجأ الناس إلى التجمع، والدعاء الجماعي، ورفع الشكاوى، وأحيانا تعطيل بعض الأنشطة العامة، للتعبير عن رفضهم.

## رموز احتجاجية وأساليب مبتكرة

يكشف التاريخ عن استخدام وسائل رمزية إلى جانب التحركات الجماعية. فإلى جانب العرائض، استخدم المحتجون أشياء أو مشاهد تحمل رسائل واضحة إلى السلطة.

ومن أبرز النماذج المصرية واقعة سنة 410هـ/1020م، عندما وضع العامة في الطريق الذي اعتاد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله المرور فيه تمثالا لامرأة مصنوعة من الورق والملابس البالية، وفي يدها رقعة مختومة تحمل شكوى شديدة اللهجة. وكان الهدف إيصال الرسالة إلى الخليفة بصورة رمزية ومباشرة.

كما كان الدعاء الجماعي وسيلة احتجاجية ذات حضور واضح، إذ كان الناس يجتمعون في المساجد أو الأماكن العامة للتضرع والدعاء، وهو أسلوب حمل في بعض الوقائع دلالة على رفض الظلم والضغط المعنوي على الحاكم.

وتوضح هذه الأمثلة أن المحتجين لم يعتمدوا فقط على القوة العددية، بل سعوا إلى ابتكار وسائل تساعدهم على إيصال مطالبهم إلى السلطة وإثارة اهتمام المجتمع بها.

## السجون حاضرة في مشهد الاحتجاج

امتد الاحتجاج أيضا إلى السجون، سواء من جانب المعتقلين أنفسهم أو من جانب الجماهير المطالبة بإطلاق المحتجزين.

وتسجل المصادر حوادث تمرد داخل السجون بسبب سوء المعاملة ومحاولات للهروب، كما شهدت بعض المدن اقتحام السجون وإطلاق محتجين جرى اعتقالهم خلال تحركات شعبية.

وفي مصر، تظهر إحدى الوقائع في دمشق ومناطق أخرى ضمن سياق أوسع من الاحتجاجات التي انتهت إلى كسر أبواب السجون وإطلاق المحتجزين، بينما شهدت القاهرة نفسها وقائع مشابهة في فترات الاضطراب السياسي.
وتكشف هذه الأحداث أن الاعتقال لم يكن دائما نهاية للاحتجاج، بل كان يمكن أن يصبح سببا لتوسعه عندما تتحرك الجماهير للمطالبة بإطلاق المحتجزين.

وتشير مجمل هذه النماذج إلى أن تاريخ الاحتجاج في المجتمعات الإسلامية كان أكثر تنوعا مما توحي به الصورة التقليدية للمظاهرة وحدها.
فقد استخدم الناس الشكوى والعرائض، والتجمعات، والإضرابات، وإغلاق الأسواق، والرموز الاحتجاجية، والدعاء، والضغط الاجتماعي، فيما ظهرت في مراحل أخرى تحركات تجاوزت الطابع السلمي.

وفي مصر تحديدا، تبرز وقائع القاهرة والإسكندرية ودور الأزهر والعامة والتجار وأصحاب الحرف لتؤكد أن الاحتجاج كان جزءا من الحياة الاجتماعية والسياسية، وأن أدواته تغيرت بحسب الظروف والأزمات وطبيعة السلطة وردود أفعالها.

وبين رغيفة خبز رُفقت بعريضة شكوى في مصر القديمة، وأسواق أغلقت، وحوانيت توقفت، ومساجد تحولت إلى نقاط تجمع، واحتجاجات قادها علماء الأزهر، تتشكل صورة تاريخية لمسار طويل من التعبير الشعبي عن الغضب والمطالب، ظل يتخذ أشكالا متعددة من عصر إلى آخر.